

دور إقليم توات في المبادلات التجارية بين بلدان المغرب الإسلامي والسودان الغربي

الأستاذ: عبد الله عباس

جامعة أدرار

ملخص:

استغل أهل توات موقع إقليمهم الوسطى بين أسواق الشمال والجنوب فاشتغل الكثير منهم كتجار وسطاء في سلع هذه الأسواق في الوقت الذي صارت فيه توات نقطة هامة إلى الالتقاء وتجمع للتجار القادمين من هنا وهناك مع قوافلهم محملة بالسلع المتنوعة للتبادل عليها، فالقافلة التواتية كانت تضم عدة رجال تقدم الخدمات الضرورية للمسافرين، الدليل له معرفة جيدة بالمسالك الصحراوية ودراية بالنجوم ومنازلها لا يهتدي فيها السبيل ولا يمر إلى بالدليل الخريث من المثلثين الطواعن في ذلك القفر يستأجره التجار على البذرة حسب قول ابن خلدون في كتابه العبر.

الكلمات المفتاحية: توات، تيقورارين، تسابيت، بودة، تمنطيط وبلاد السودان

Abstract :

The Tuati people profited from their central location between the North and South markets. Many of them worked as intermediaries in the commodities traded in these markets. At the same time, Tuat became an important meeting-point of the merchants who came from different places with their caravans loaded with various commodities for exchange. The Tuwati caravan provided the necessary services for travelers: the guide had a good knowledge of the desert roads and the stars, according to Ibn Khaldun in his *Kitāb al-'Ibar* or "Book of Lessons."

مقدمة:

يعتبر موقع توات الاستراتيجي عاملاً مساعداً للتجارة فهو الممر الطبيعي لتجارة السودان الغربي ولبضائع بلدان المغرب الإسلامي بحيث أصبحت توات بحق حلقة وصل بين الجنوب الغربي من الجزائر والسودان الغربي.

لقد استغل أهل توات موقع إقليمهم الوسطى بين أسواق الشمال والجنوب فاشتغل الكثير منهم كتجار وسطاء في سلع هذه الأسواق في الوقت الذي صارت فيه توات نقطة هامة إلى الالتقاء وتجمع للتجار القادمين من هنا وهناك مع قوافلهم محملة بالسلع المتنوعة للتبادل عليها، فالقافلة التواتية كانت تضم عدة رجال تقدم الخدمات الضرورية للمسافرين، الدليل له معرفة جيدة بالمسالك الصحراوية ودراية بالنجوم ومنازلها لا يهتدي فيها السبيل ولا يمر إلى بالدليل الخريث من المثلثين الطواعن في ذلك القفر يستأجره التجار على البذرقة حسب قول ابن خلدون في كتابه العبر.

لقد تحدث ابن خلدون عن دور توات في المبادلات التجارية وأهمية موقعها في ذلك فيقول: "وطن توات ... هو بلد مستبحر في العمران وهو ركاب التجار إلى مالي، وبينه وبين تغمر مالي المسمى "غار المفازة المجهلة" لا يهتدي فيها للسبيل، ولا يمر الوارد إلا بالدليل الخريث من المثلثين الطواعن في ذلك القفر يستأجره التجار البذرقة¹ بهم بأوفى الشروط"².

وفي موطن آخر يتحدث ابن خلدون عن المكانة والأهمية التي تحتلها هذه المنطقة في النشاط الاقتصادي حيث يقول: "ومنها انطلق نشاطهم الحضاري إلى أوروبا والسودان مثل توات وبودة وتمنيط وورجلان وتيقورارين شرقاً"³

كما يبين حسن الوزان هذا الدور في حديثه عن تساييت أحد قصور توات فيقول: "إقليم مأهول في الصحراء يضم أربعة قصور وقرى عديدة في تخوم ليبيا على الطريق المؤدية بين فاس وتلمسان إلى مملكة أكّدس -هي الآن إحدى مدن النيجر- في بلاد السودان وتيقورارين، وسكان هذه المنطقة أغنياء لأنهم اعتادوا الذهب كثيراً بسلعهم إلى بلاد السودان، وهنا مجمع القوافل، لأن تجار بلاد البربر ينتظرون لتجار بلاد السودان، ثم يذهبون جميعاً"⁴.

¹ البذرقة - الحفارة - الميزرق: الدليل والخفير.

² ابن خلدون، عبد الرحمن أبو زيد، كتاب ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1987م، ج7، ص118.

³ ابن خلدون، المصدر نفسه، ج6، ص120، السلاوي أحمد بن خالد الناصري، الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى، القاهرة، 1304هـ، ج2، ص173

⁴ حسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي، طبعة ثانية، دار المغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983م، ج2، ص133-134.

ويتحدث مصدر آخر عن هذا الدور للمنطقة مبينا مكانة وأهمية الإقليم التواتي لكل من أراد أن يتوغل في السودان كما فعل المنصور الذهبي عندما قاد حملته من أجل السيطرة على بلاد السودان فيقول الفشتالي في ذلك: "والقطران توات وتيقورارين من أعظم وأضخم أقاليم المغرب فقد كان أمام المنصور طريقين للوصول إلى السودان أولهما توات وتيقورارين في الجنوب الشرقي والآخر عبر الصحراء الجنوبي إلا أنه فضل الطريق الأول شعورا بأهميتها فالقطران عالم من عوالم الأرض ولإقليم من أقاليم الدنيا لما جمعه من الأمم وتراكم من القصور وأهل من العمران وتخلله من العيون ذات الآبار والنخيل المرخي على أكتافه جناحا من الليل الدامس زيادة على ذلك أهمية طرقها في التجارة بين بلاد المغرب والأقطار الإفريقية.¹

ولعل موقع توات الاستراتيجي يعتبر عاملا مساعدا للتجارة فهو الممر الطبيعي لتجارة السودان الغربي ولبضائع بلدان المغرب بحيث أصبحت بحق حلقة وصل بين الجنوب الغربي من الجزائر والسودان الغربي بالنسبة إلى القوافل التجارية التي تتخذ طرقا مختلفة كالطريق المستعمل كثيرا من قبل التجار الذي ينطلق من منطقة الجريد التونسية ويمر عبر منطقتي ورقلة وتوات ليصل إلى بروم في بلاد النيجر.² فقد استغل أهل توات موقع إقليم الوسط بين أسواق الشمال والجنوب فاشتغل الكثير منهم كتجار وسطاء في هذه الأسواق في الوقت الذي صارت فيه توات نقطة هامة للالتقاء والتجمع للتجار القادمين من هنا وهناك مع قوافلهم محملة بالسلع المتنوعة للتبادل عليها.³

فالقافلة التواتية كانت تضم عدة رجال تقدم الخدمات الضرورية للمسافرين، الدليل له معرفة جيدة بالمسالك الصحراوية ودراية بالنجوم ومنازلها لا يهتدي فيمل للسبل ولا يمر الوارد إلا بالدليل الخريث من المثلثين الظواعن في ذلك القفر يستأجره التجار البندقية⁴، والطبيب العارف بالأعشاب المفيدة لبعض الأمراض أثناء السفر، والفقهاء المتفقه في الأمور الشرعية، فيستفتي عما لبس من تساؤلات تتصل بالمرور

¹ عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا في مآثر مواليتنا الشرفاء، ت، عبد الكريم كريم، الرباط، 1972/ص73.

² André Zaouche ; op.cit, p9.

³ فرح محمود فرح، إقليم توات خلال القرنين الثامن والتاسع عشر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977، ص15

⁴ ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص118

الدينية، والحراس المكلفون بحراسة القافلة وأبعادها عن أماكن الخطر¹، لهذا نجد أن أغلبية المدن والقصور التواتية نشأت أصلاً عن طريق القوافل التجارية العابرة للصحراء أو عند سير هذه القوافل داخل الإقليم التواتي، قاصدة الأسواق الرئيسية، ولذلك تحتم على أصحاب هذه القوافل التعامل مع أسواق هذه المدن والقصور التواتية التي يمرون بها للحصول على احتياجاتهم لمواصلة سفرهم الطويل.

لقد كانت واحات منطفة توات خلال القرن الخامس عشر الميلادي من أكثر المناطق نشاطاً في تسيير القوافل التجارية بين السودان وبلدان الشمال فقد زارها سنة 851هـ/1447م، الرحالة الجنوبي مالفانت وكان هدفه الوصول إلى السودان الغربي للتعرف على بلاد الذهب التي يجني منها التجار المغاربة أرباحاً كثيرة وربما يكون قد ذهب إليها عن طريق تلمسان، فقد كان لمرفاً هنبين في ذلك الوقت نشاط كبير للتبادل التجاري بين أوروبا ومملكة تلمسان ومنه كانت تنتقل كثيراً من البضائع التي تأخذ طريقها إلى بلاد السودان عن طريق توات.

وكان التواتيون يشكلون منذ ما قبل هذه الفترة جالية كبيرة تعمل في التجارة في منطقة نهر النيجر الأعلى وتتولى استقبال القوافل القادمة من الشمال وتوزيع بضائعها على مختلف المدن في السودان²، خاصة عندما اشتد الطلب على شراء العبيد، فازداد من ثمة إقبال تجار الشمال على أسواق توات، ولم يكن شراء العبيد هو السلعة الوحيدة، التي تجذب هؤلاء التجار، بل كانوا يقبلون أيضاً على شراء الذهب الخام وريش النعام والعاج وهي سلع لا تقل أهمية عن تجارة العبيد، وكانت مثل هذه السلع متوفرة في أسواق توات الكبرى، ومن هذه الأسواق نذكر أسواق تمنطيط، عين صالح، تيميمون، وغيرها من الأسواق الأخرى. كما تسوق بها سلع كانت تجلب من شمال المغرب الإسلامي كالخيل والملابس الملف معناه المطروز والحريز³.

¹ كريبي ماجدة، العلاقات بين المغرب والسودان في العصر المريني، رسالة لنيل الدبلوم العالي في التاريخ، جامعة

محمد الخامس، الرباط، 1987-1988م، ص 75-79.

² عبد الرحمان السعدي، تاريخ السودان، طبعة هوراس، 1964 ص 128.

³ العياشي، محمد أبو سالم، رحلة العياشي، طبعة فاس الحجرية بدون تاريخ، ص 20.

وتعتبر منطقة قصور بودة مخزنا كبيرا للبضائع في توات. كانت تستقبل تلك البضائع من أسواق أوروبية عن طريق تلمسان وتمنطيط ثم توجهها نحو بلاد السودان الغربي عبر ولاياتة¹.

أما عن المنتوجات التواتية في هذه الأسواق التي كان الطلب عليها شديد من قبل السودانيين نذكر التمر والحناء والطباق².

ورغم بعد أسواق توات في قلب الصحراء، فإنها جذبت إليها قوافل المسافرين، فيصف لنا أحد الرحالة العرب سوق مقاطعة تسابيت الذي يقام بمدينة (برينكان) عندما مر بها في طريقه لتأدية فريضة الحج فيقول: "وأقمنا بها ستة أيام وبعنا بها خيلنا وما ضعف من إبلنا واشترينا ما نحتاج إليه من التمر، وبها من التمر أنواع كثيرة ووجدنا التمر فيها رخيصاً"³

وقد اكتسبت تمنطيط شهرة وأهمية كبيرة إذ يعد سوقها من أقدم الأسواق التواتية على الإطلاق وكما أشار إلى ذلك ابن خلدون في قوله: "فواكه بلاد السودان كلها من قصور صحراء المغرب مثل توات وتيكور ارين... وإن قبائل بين تلمسان ووجدة تسمى ذي عبيد الله وتنتهي رحلتها في القفار إلى قصور توات وتمنطيط وربما عاجوا ذات الشمال إلى تسابيت وتيكورارين، وهذه كلها رقاب السفر إلى بلاد السودان..."⁴ ، وكذلك صاحب كتاب "القول البسيط في أخبار تمنطيط في قوله: "... فاعلم أن مدينة تمنطيط اسم لمدينة في إقليم توات لقد اجتمع فيها العلم والعمارة والولاية والديانة والرئاسة، وانتصب بها الأسواق والصانع والتجارات والبضائع، وكان لا يستغني عنها غني ولا زاهد.... ولا يقنع ذو سلعة وعرضها إلا سعرها..."⁵

نظرا لما اشتهرت به أسواق توات من رخص وتنوع السلع فقد أصبحت تجذب أيضا قوافل الحجاج العابرة للصحراء في طريقها إلى الأراضي الحجازية وكانت هذه القوافل تنطلق من مدن سجلماسة وتافيلالت وشنقيط كل عام، تسلك أثناء سيرها نحو الشرق

¹ Zauche ; op.cit.

² Flay Sainte Marie, l'agriculture et commerce au Touate, Oran, 1905, p12.

³ العياشي، المصدر السابق، ج1، ص20

⁴ ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص95، 63-123.

⁵ ابن باباحيدة، ابن حاج عبد الرحيم محمد الطيب، القول البسيط في أخبار تمنطيط، تحقيق فرج محمود فرج، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977، ص03.

الطريق المار داخل إقليم توات، وغالبا تشتري هذه القوافل حاجتها من المؤن من الأسواق¹. حيث يقول في ذلك الرحالة المغربي العياشي: "... أن كثيرا من الحجاج لما غلا صرف الذهب في تافيلالت أخواه الصرف إلى توات لأن الذهب فيها أرخص وكذلك سعر القوت من الزرع والتمر... ويوجد فيها من البضائع والسلع التي تجذب من هناك (السودان) شيء كثير..."²

لقد لعبت أسواق توات دوراً هاماً في تجارة المغرب الإسلامي وإقليم السودان الغربي فيحق كانت همزة وصل بينهما، فاستغل أهل توات موقع إقليمها الوسط بين أسواق الشمال المغربي والجنوب السوداني فاشتغل الكثير منهم، كتجار ووسطاء في سلع هذه الأسواق فكان التواتيون يشكلون جالية كبيرة تعمل في التجارة بمنطقة السودان الغربي وتتولى استقبال القوافل القادمة من الشمال وتوزيع بضائعها في مختلف المدن في السودان.³

فقد كانت توجد منذ عهد بعيد في مختلف واحات منطقة توات شبه اتحادات تجارية مستقلة ويتولى رؤسائها حكم واحاتهم بالمنطقة ويبدو أن السكان كانوا راضين عن وضعيتهم تلك وكان لحكوماتهم المحلية، بهذا الشكل قدرة اقتصادية وبشرية على المقاومة استطاعت أن تكلف جيوش المنصور الذهبي حين داهمتها في 989 هـ خسائر كبيرة⁴. هذا وقد تفهمت القبائل السودانية دور التواتيين التجاري القائم على تعاليم دينية وأخلاقية رفيعة المستوى مبنية على الصدق في القول وتجنب الغش في المعاملة و الوفاء بالعهد وإخراج الزكاة، وهذا ما ساعد التواتيين على أن يكسبوا ثقة الجميع ويقوم بدور الوسيط التجاري بين مناطق غرب إفريقيا وجنوب الصحراء فالسلع المفقودة في الشمال مثل ريش النعام والذهب والعاج واللحوم يأتي بها التجار التواتيون من حوض نهر النيجر و تعرض في الأسواق الكبرى، كأسواق تمنطيط وعين صالح وتيميمون وغيرها في نفس الوقت يرجعون بسلع الشمال المفقودة في الأسواق السودانية مثل التمر والتبغ و الملح والمصنوعات النحاسية والحلي وأدوات الزينة والحبال والعطور والقمح و الزيت والمنسوجات و لتوزيع هذه السلع فقد سلكوا الطرق الصحراوية المتعارف عليها ما بين

¹ العياشي، المصدر نفسه، ص 20.

² العياشي، المصدر السابق، ص 20.

³ العياشي، المصدر نفسه، ص 128.

⁴ اليفرنى، نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي، ط، فاس، الحجرية، دون تاريخ، ص 273.

غرب إفريقيا وإقليم توات وقد نشطت حركة القوافل عبر هذه المسالك والطرق منذ القرن الثاني الهجري مستفيدة من الآبار التي حفرها الفاتح العربي المسلم عبد الرحمان بن حبيب أو حبيب نفسه ابن أبي عبيدة بن نافع¹.

فالأبار قد لعبت دوراً في تأمين الماء للقوافل، حيث كانت محطات تستريح فيها الإبل ويلتقي فيها المسافرين، ويرقبون حمولتهم ويتبادلون فيها أخبار الطريق يتعارفون على الأسعار ويؤدون بها الصلاة وأحياناً تكون مناطق لتجمعات سكانية يتم فيها البيع والشراء وعادة ما تكون الآبار محفورة في وسط الأودية، وقد تختلف أعماقها باختلاف المناطق التي تحفر بها فمثلاً آبار الأزواد²، مياهها عميقة تصل إلى خمسين متراً بينما تنزروفت أقل عمقا، والبئر عادة ما يكون عبارة عن سواقي ترد عليها الإبل والغنم فأهمية حفر الآبار تنافست عليها القبائل التواتية باعتبارها صدقة جارية فقد حفر سيدي المختار الكنتي بئرين بضواحي تلدومي³.

وأهم الأسواق التجارية التي تتجه إليها هذه الطرق في أعماق الصحراء بجنوب المغرب وبلاد السودان الغربي نذكر سوق تمبكتو، الذي كان له أهمية خاصة خلال العصر الوسيط تجارياً وثقافياً في أقصى الجنوب، وقورارة وتوات وعين صالح وتيدكلت في الشمال، كما توجد أيضاً على طول الطريق بين سوق تمبكتو، وأسواق توات وتيدكلت أسواق كثيرة ومتنوعة وهي أروان، ومبروك وإفركان وتيمساو وأرنان، وتاودين، ووالون، وتيرشيمومين، وأقبلي.

وبناء على ما سبق يمكن تحديد أهم طرق القوافل التجارية التي كانت تمر بإقليم توات، وهي كالآتي:

- طريق فاس ومكناس، إلى تمبكتو، يمر بقصبة المخزن وام دربينه ويتبع حوض وادي غير إلى إيغلي، ثم حوض وادام، الساورة إلى توات وأقبلي وبئر تيريشومين، وولين، وعين أرنان ومبروك، و تمبكتو، وهناك طريق آخر يخرج من مراكش يتصل بهذا الطريق في توات ويمر على تمسنة، والمسيتر. والمعطف، وتمنتيت (تمنطيط) إلى أقبلي وبئر تيريشومين.

¹ البكري أبو عبد الله، المغرب في ذكر افريقية والمغرب، طبعة الجزائر، 1911م، ص158.

² الأزواد هي تلك المناطق الواقعة في الجنوب من وراء الحدود الجزائرية فيما تعرف اليوم بدولة مالي ويحدها شمالاً صحراء تنزروفت التي تنتهي عندها جنوباً منطقة توات.

³ الطرائف والتلائد، المصدر السابق، ص669.

- طريق وهران وأرزويو إلى تمبكتو: ويمر على الخيثر إلى البيض ثم توات إلى تمبكتو.
- طريق مدينة الجزائر إلى تمبكتو: ويمر على البليدة وبوغار والأغواط وغرداية والمنيعة وعين صالح وأقبلي وبئر تيريشومين أين يلتقي بطريق توات إلى تمبكتو، ولهذا الطريق فرع آخر من عين صالح إلى بئر عسيو وتيلرس أين يتفرع إلى فرعين كذلك، فرع إلى إقدام وماو، شرق بحيرة تشاد وإقدام وكوكا جنوبها وفرع إلى الجنوب الغربي نحو أقاديس أين يتفرع إلى فرعين فرع سوكتو وفرع إلى كاتسينا.
- طريق سكيكدة وقسنطينة إلى أمقيد والهقار، البيوض، عين صالح إلى مبروك ثم تمبكتو¹

2- دور التجار التواتيين المسلمون:

وإذا كان العلماء قد أسهموا بالقسط الأوفر في تغيير وجه إفريقيا، وتحويلها من الوثنية إلى الإسلام فإن دور التجار المسلمين لم يكن أقل أهمية من حيث المشاركة في الإسلام، فقد كانت تجارتهم ذات أعمال مزدوجة، رابحة في الدارين الدنيا والآخرة ولصالح الإسلام ونفع المسلمين حيث أنهم ربطوا مختلف المناطق النائية بطرق تجارية لسد احتياجات القبائل والشعوب بالقارة وأنعشوا المبادلات التجارية، ولهذا الأمر أهميته الاقتصادية الكبرى هذا من جهة ومن جهة أخرى مكّنوا الوثنيين من الدخول في الإسلام بمعاملتهم النقية وأمانتهم الطاهرة، فقد كان لحركة القوافل بين حواضر الصحراء وبلاد السودان أثر كبير في التواصل الروحي العميق، الذي نجد له نموذجاً متميزاً في العلاقة بين إقليم توات وحاضرة السودان الغربي.

يقول امادوديا في هذا الصدد: "لم يدخل الإسلام غرب إفريقيا عن طريق الغزو الإمبريالي ولا عن طريق شواطئ النيل، وإنما عن طريق الصحراء التي اعتبرت فيما بعد بحراً لا سبيل لعبوره"²

يذكر أن التجار والدعاة التواتيين أولئك الجنود المجهولين الذين لم ينضوا تحت لواء دولة ذات منفعة، ولم ينتظموا في جيش أو خلف قائد بعينه، هم الذين وصلوا حركة الفتح في إفريقيا واستطاعوا أن ينشروا الإسلام في مناطق واسعة من القارة وليس لهم من العدة والسلاح إلا الحكمة والموعظة والأسوة الحسنة ولقد كابدوا في ذلك من

¹ مجلة الثقافة، العدد 59، شوال - ذو القعدة 1400 هـ، سبتمبر - أكتوبر 1980م، ص 13 فما بعدها.

² الشيخ أنادوب، إفريقيا في الاستعمار، طبعة بيروت، ص 162

المشاق القدر الكبير¹. وهذا ما يؤكد تأثير جنوب شمال المغرب الإسلامي خاصة إقليم توات في بلدان إفريقيا المجاورة له بشتى الطرق الحضارية.

لم تكن الصحراء الكبرى فاصلة بين إفريقيا العربية وإفريقيا السوداء الغربية أو حاجزاً يقف دون نشاط العرب المسلمين في أداء رسالتهم الحضارية الإنسانية، لقد حمل المسلمون من العرب والبربر الدين الإسلامي إلى إفريقيا في رحلاتهم التجارية وقام بالدعوة أيضاً الدعاة المسلمون، وكان لانتشار الإسلام في وادي النيجر أكبر الأثر في نشوء مدينتين إفريقيتين إسلاميتين تعتبران مركز إشعاع الثقافة العربية الإسلامية، الأولى مدينة تمبكتو التي تأسست في القرن الثاني عشر الميلادي. على طريق القوافل القادمة من شمال إفريقيا، غير بعيد عن نهر النيجر² والتي يقول عنها السعدي: "ما دنسها عبادة الأوثان ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمان" والثانية هي مدينة (جيني) أو جنة المدينة التجارية التي تقع إلى الجنوب الغربي من الأولى فقد هدم سكانها في مطلع القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) الآثار الوثنية وأقاموا على أنقاضها المساجد ذات الطراز المغربي السوداني³، ولقد قدر لهاتين المدينتين أن تؤثرتا تأثيراً بليغاً في تقدم الإسلام في السودان الغربي، فلم ينتشر الإسلام من توات إلى داخل القارة الإفريقية عن طريق الغزو والفتح، بل كان ينتشر مع ركاب القوافل التجارية التي كانت في حركة دائبة بين شمال إفريقيا والمناطق المطلة على الصحراء الكبرى من جنوبها والتي كانت تمتد من المحيط الأطلسي غرباً إلى السودان وادي النيل شرقاً⁴.

ومن أبرز المآثر والأعمال الجديرة بالذكر فيما يتعلق بالتجار التواتيين، وأنهم أسهموا في بناء المساجد والزوايا وفتح المدارس والمصاهرة مع أهالي البلاد التي يتردد عليها المسلمون أو يستوطنونها أو بشراء العبيد الذين يعلمونهم مبادئ الإسلام ثم يعتقونهم ويعيدونهم إلى أوطانهم كي يدخلوا إخوانهم في الإسلام، فكانوا الساعد الأيمن للعلماء والفقهاء، وهذا الفضل يذكره التاريخ للتجار الذين انتشروا بمدينة تمبكتو وغيرها، من

¹ خليل النحوي، بلاد شنقيط، المنظمة العربية للتربية والثقافة، تونس، 1987م، ص262.

² الشيخ أنتادوب، إفريقيا فيل الاستعمار، طبعة بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ص167.

³ قداح نعيم، حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في إفريقيا الغربية، طبعة الجزائر، بدون تاريخ، ص86.

⁴ حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام والربية في ما يلي الصحراء الكبرى، ط3، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،

1983م، ص17.

المدن والمناطق الأخرى¹، ورغم وعورة مسالك الصحراء وبعد المسافات إلا أن هذا لم يكن عائقاً في وجه تجار توات الذين كان لهم مسلك نحو شمال المغرب الإسلامي ومسلك نحو الجنوب ومناطقه (إفريقيا جنوب الصحراء) فقد كانت القوافل التجارية تربط بين مراكز الحضارة في الشمال وبين سكان جنوب الصحراء الكبرى، وقد اتسع دور هذه القوافل التجارية بعد أن عم انتشار الإسلام في شمال إفريقيا، حمل المسلمون من العرب والبربر الإسلامي إلى غرب إفريقيا، حيث كان التاجر المسلم يمثل في أفعاله قيماً دينية كان لها تأثير على غيره من الناس، وفي هذا الصدد يقول الدكتور حسن إبراهيم حسن: "... إذا دخل قرية وثنية سرعان ما يلفت الأنظار إليه بكثرة وضوءه الذي هو مظهر الصلاة والعبادة التي يؤديها بنظام وخشوع كأنه يخاطب كائناً خفياً، وأيضا مظهراً من مظاهر النظافة المحببة إلى النفوس البشرية، وما يتجلى عليهم احترامه وتقديره والاستماع لما يقوله"². فهكذا كان السمو العقلي والخلقي الذي يتميز به التاجر المسلم دور في استمالة قلوب الوثنيين إليه، وإثارة فضولهم لمعرفة هذا الدين الجديد (الإسلام).

الخاتمة:

لقد لعبت أسواق توات دوراً هاماً في تجارة المغرب الإسلامي وإقليم السودان الغربي، فبحق كانت همزة وصل بينهما، فاستغل أهل توات موقع إقليمهم الوسطي بين أسواق الشمال المغربي والجنوب السوداني فاشتغل الكثير منهم كتجار ووسطاء في سلع هذه الأسواق فكان تواتيون يشكلون جالية كبيرة تعمل في التجارة بمنطقة السودان الغربي تتولى استقبال القوافل القادمة من الشمال وتوزيع بضائعها في مختلف المدن في السودان.

كما كان التجار التواتيين يجوبون البلاد الإفريقية فيستقربون من يلقون بالقيم والخلاق الفاضلة وشعائر التي يردونها وبأحاديثهم إلى الناس وتعليمهم ووعظهم إياهم وكان الأمراء الأفارقة الذين اعتنقوا الإسلام يتخذون شيوخاً من التجار التواتيين يعلمونهم أحكام الدين ويقرئونهم القرآن ويؤمنون بهم الصلاة ويبدلون النصيح للمسلمين.

¹ حسن إبراهيم حسن، المرجع نفسه، ص 16.

² حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق ص 16-17.

وهكذا بحق لعب إقليم توات دوراً كبيراً في المبادلات التجارية بين بلدان المغرب الإسلامي والسودان الغربي، فهو الممر الطبيعي لهذا التبادل بين الإقليمين فاستغل أهل توات هذا الموقع الإقليمي الوسطى، فعملوا كتجار وسطاء في سلع هذه الأسواق وهذا ما أقره جل المؤرخين وأعترفوا لهم به، وعن طريق هذا التبادل التجاري نقلوا الحضارة العربية الإسلامية إلى بلاد السودان وأخرجوا أهلها من